

مكارم الأخلاق

الأخلاق الكريمة هي هوية الإنسان الحقيقي، لأنها تدل على أصل المرء وكرمه وفعله، هي هوية الوارث المحمدي.

من صدق اللسان أن يكون كثير العمل قليل الفضول عفيفاً شكوراً.

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً»^(١).

شرح الحديث:

أقرب الناس مجلساً يوم القيامة من حضرة النبي عليه الصلاة والسلام أحسنهم خلقاً هو الذي يصنع المعروف ولا يرجو الأجر إلا من الله ﷻ ومتواضع لخلق الله ﷻ ويكفّ أذاه عن الناس.

وطلاقة الوجه من حسن الخلق لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق».

ومن مكارم الأخلاق مد يد المعونة لإخوانه وجيرانه لأن أحب الخلق لله تعالى أنفعهم لأخيه.

الدليل القرآني

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثلياً عليه ومظهراً نعمته لديه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم، الآية: ٤].

من أحسن الأخلاق أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن.

عمن ظلمك لقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٩٩].

ولقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْخَيْرِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٣٤].

وصايا نبوية لحسن الخلق

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»^(١).

خليل الرحمن والمجوسي

جاء مجوسي عند سيدنا إبراهيم عليه السلام فأكرمه، فقالت الملائكة: ربنا خليلك يكرم عدوك.

فقال تعالى: أنا أعلم بخيلي منكم، يا جبريل اهبط إليه واعرض عليه قول الملائكة، فأخبره بذلك جبريل عليه السلام.

فقال إبراهيم عليه السلام: قل لربي تعلمت الجود منك لأنك تحسن لمن أساء^(٢).

السماح والسلام من الأخلاق

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهم الذي يبدأ بالسلام، والذي يبدأ بالسلام يسبق إلى الجنة»^(٣).

إن الله يدافع عن الذين آمنوا

عن ابن المسيب قال: بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه وقع

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح. (٢) حكايا الصوفية.

(٣) البخاري والترمذي والطبراني.

رجل بأبي بكر رضي الله عنه فأذاه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة فانتصر أبو بكر، فقام رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أوجدت^(١) علي يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: «نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت ذهب الملك وقعد الشيطان فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان»^(٢).

حقيقة الأخلاق

الأخلاق الحسنة:

هي كمال الإنسان بها تعرف هويته، وبها تشرق نور هدايته، ويكون عبد الله في الأرض الذي وصفه جلّ وعلا لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان، الآية: ٦٣].

لقد نسب الله إليهم صفة الرحمة، فسامهم عباد الرحمن وأضافهم إليه تشريفاً وتكريماً. يمشون بتواضع وسكينة ولا يتكبرون على الناس، وإذا خاطبهم الجاهلون بالسلوك الإنساني والجاهلون بحقوق الناس، قالوا جميلاً من القول ولم يقابلوهم بالمثل بل بالعفو. فالمؤمن حليم وإن جُهل عليه لم يجهل.

التواضع من الإيمان

وفي الحديث: «ما من أحد إلا وفي رأسه سلسلتان إحداهما إلى السماء السابعة والأخرى إلى الأرض السابعة، فإذا تواضع رفعه الله بالسلسلة التي في السماء السابعة، وإذا تكبر وضعه الله بالسلسلة التي في الأرض السابعة»^(٣).

(٢) وقع الشيطان: قعد الشيطان.

(١) أوجدت علي: أغضبت علي.

(٣) حكايا الصوفية.

الحلم سيد الأخلاق

روي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام دعا غلاماً فلم يجبه، فدعاه ثانية وثالثة فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضجعاً، قال سيدنا علي: ما حملك على ترك جوابي؟

قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت.

فقال سيدنا علي: امضِ فأنت حر لوجه الله تعالى.

روي عن ميمون بن مهران^(١): أن جاريته كانت تسكب الماء على قدميه فوقع منها الإبريق عليه فثار غضبه وهم بضربها.

فقالت وبلهجة الخائف المرتجي: قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٣٤].

فقال: كظمت غيظي.

قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٣٤].

فقال: عفوت عنك.

فقالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٣٤].

فقال: اذهبي فأنت حرة^(٢).

من التقوى حسن الخلق

قليل لذي النون المصري: من أكثر الناس همأً؟

قال: أسوأهم خلقاً.

وقال وهب: ما تخلق عبد بخلق أربعين صباحاً إلا جعل الله تعالى

(١) ميمون بن مهران الرقي، أبو أيوب: فقيه من القضاء، كان مولى لامرأة بالكوفة واعتقته فنشأ فيها ثم استوطن الرقة فكان عالم الجزيرة وسيدها، كان ثقة في الحديث كثير العبادة، توفي ١١٧هـ.

(٢) الرسالة القشيرية.

ذلك طبيعة فيه .

شتم رجل الأحنف بن قيس وكان يتبعه، فلما قرب من الحي وقف الأحنف وقال: يا فتى إن بقي شيء في قلبك فقله كي لا يسمعه بعض سفهاء الحي فيجيبوك .

يقصد سيدنا الأحنف إنك أيها الرجل سفيه ولا يجيبك إلا السفهاء من أمثالك لأنه لا يجتمع نور وظلمة في آن واحد^(١).

وصايا لقمان لابنه

قيل في الآثار:

قال ابن لقمان الحكيم لابنه: يا أبت أي الخصال من الإنسان خير؟ قال: الدين .

قال: فإذا كانت اثنتين؟

قال: الدين والمال .

قال: فإذا كانت ثلاثاً؟

قال: الدين والمال والحياء .

قال: فإذا كانت أربعاً؟

قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق .

قال: فإذا كانت خمساً؟

قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء .

قال: يا بني فمن اجتمعت فيه هذه الخصال الخمس فهو نقي تقي والله ولي ومن الشيطان بريء^(٢).

(١) الرسالة القشيرية .

(٢) إحياء علوم الدين .

كيف نعرف صاحب الخلق

وتعرف الأخلاق عند الصفات الثلاث: قوة العلم، قوة الغضب، قوة الشهوة.

● أما قوة العلم:

فحسنها وصلاحتها في أن تصير بحيث يسهل بها إدراك الفرق بين الصدق والكذب، وبين الحق والباطل، وبين الجميل والقيح، فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة، الآية: ٢٦٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان، الآية: ١٢].

قال لقمان: خدمت أربعة آلاف نبي واخترت من كلامهم ثمانى كلمات:

- ١ - إن كنت في الصلاة فاحفظ قلبك.
 - ٢ - وإن كنت في الطعام فاحفظ بطنك.
 - ٣ - وإن كنت في بيت الغير فاحفظ عينك.
 - ٤ - وإن كنت بين الناس فاحفظ لسانك.
 - ٥ - واذكر اثنتين وانس اثنتين، أما اللذان تذكرهما فالله والموت، وأما اللذان تنساهما فإحسانك في حق الغير وإساءة الغير في حقك، والحكمة تسمى عند إفراطها في الأعراض الفاسدة خبثاً، ويسمى تفريطها جداً بلهاً والوسط يختص بالحكمة.
- قوة الغضب:

فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة. وكان ﷺ إذا تكلم أحد بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه، ولكن لا يقول إلا حقاً ولا يخرج غضبه عن الحق^(١). لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر».

(١) إحياء علوم الدين.

ولقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَيْبِ وَالْغَيَظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٣٤].

ولم يقل والفاقدين الغيظ، فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى النبي ﷺ فقال: إن دوساً - أي قبيلة دوس - قد عصت وأبت، فادع الله عليهم - أي أن يهلكهم الله كما أهلك الأقوام من قبلهم - فاستقبل القبلة عليه الصلاة والسلام ورفع يديه فقال الناس: هلكوا، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اهْدِ دوساً واث بهم» - أي مؤمنين تائبين - ^(١).

● قوة الشهوة:

ومنها شهوة البطن وبها أخرج آدم من الجنة، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال ويحصل منها الجشع والطمع والبخل، وهي من الصفات الذميمة المعيبة للإنسان.

قال عليه الصلاة والسلام: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» ^(٢).

إطعام الطعام من الأخلاق

وفي الفتح الرباني:

يا قوم إيش ينفعكم الجوع والعطش بالنهار والإفطار على الحرام بالليل.

يا غلام:

صم وإذا أفطرت واسي الفقراء بشيء من إفطارك ولا تأكل وحدك،

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه.

فإن من أكل وحده ولم يُطعم يخاف عليه من الفقر.

يا قوم تشبعون وجيرانكم جياع، وتدعون أنكم مؤمنون، ما صح إيمانكم! يكون بين يدي أحدكم طعاماً كثيراً يفضل عنه وعن أهله ويقف السائل على بابه ويرده خائباً، عن قريب يذهب خورك، عن قريب تصير مثله، وترد كما رددته مع القدرة على عطاءه^(١).

إطعام الفقراء من الأخلاق

كان الحبيب العجمي يخدم الحسن البصري، فصنع حبيب طعاماً لإفطارهما وإذا بسائل فأعطاه جميعه.

فقال الحسن: يا حبيب إنك كثير اليقين قليل العلم فهلا أعطيته النصف ونتقوت بالنصف؟

قال: يا سيدي ثوابه لك وأنا أستغفر الله، فلما جنّ الليل إذا بقارع على الباب فخرج حبيب فوجد عبداً معه طعام كثير، والمطر ينزل والغلام يبكي.

فقال له: ما هذا؟

قال: طعام، قال لي سيدي: إن قبله منك الحسن البصري، فأنت حر لوجه الله تعالى وقد طال عليّ الرق.

فقال حبيب: لا إله إلا الله عتق رقبة وإطعام طعام جائع، ثم دخل به على الحسن، وقال: يا سيدي إنك كثير العلم قليل اليقين.

فقال: يا حبيب تقدمناك وسبقتنا^(٢).

قال جعفر بن محمد رحمهما الله تعالى: إذا بلغك عن أخيك الشيء تنكره فالتمس له عذراً إلى سبعين عذراً فإن أصبته، وإلا قل: لعل له عذراً

(١) الفتح الرباني للجيلاني.

(٢) شرح الحكم العطائية.

لا أعرفه .

قال الفضيل بن عياض: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق .

قال السري السقطي: حسن الخلق كف الأذى عن الناس واحتمال الأذى عنهم بلا حقد ولا مكافأة .

وقال الحارث: حسن الخلق احتمال الأذى وقلة الغضب وبسط الوجه وطيب الكلام^(١) .

تابعي جليل مثل الأخلاق والكرم والتقوى: علي بن الحسين بن علي زين العابدين

قال الزهري: ما رأيت قريشاً أفضل من علي بن الحسين .

وما إن اكتمل عليّ بن الحسين شباباً وعلماً حتى ظفر المجتمع المدني بفتى أعظمهم فضلاً وخلقاً .

فلقد بلغ من عبادته وتقواه أنه كانت تأخذه رعدة بين وضوئه وصلاته فتفرض جسده نفصاً فلماً كُلّم في ذلك قال: ويحكم، كأنكم لا تدرّون إلى من أقوم، ولا تعلمون من أريد أن أناجي .

من شدة خوفه من الله يبكي

ولقد رآه طاووس بن كيسان ذات مرة في ظلال البيت العتيق يبكي بكاء المقيم ويدعو دعاء المضطر، فوقف ينتظر حتى إذا كف عن بكائه وفرغ من دعائه تقدم نحوه، وقال له: يا ابن رسول الله ﷺ رأيتك على حالتك هذه ولك فضائل ثلاث أرجو أن تحميك من الخوف .

فقال زين العابدين: وما هي يا طاووس؟ .

فقال: إحداهن أنك ابن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ثانياً

(١) طبقات الصوفية .

شفاعة جدك لك، ثالثاً رحمة الله.

فقال له: يا طاووس إن انتسابي إلى رسول الله ﷺ لا يؤمنني بعد أن سمعت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون، الآية: ١٠١] وأما شفاعة جدي لي فإن الله علت كلمته يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء، الآية: ٢٨] - أي للذي قبله الله وحظي عنده - وأما رحمة الله تعالى فهو يقول: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ٥٦].

حسن أخلاقه

ذلك ما رواه الحسن بن الحسن قال: وقعت بيني وبين ابن عمي زين العابدين خصومة فذهبت إليه وأنا أتميز غيظاً منه، وكان مع أصحابه في المسجد فما تركت شيئاً إلا قتلته له وهو ساكت لا يتكلم ثم انصرف، فلما كان الليل إذا طارق على الباب يقرعه فقممت إليه لأرى من هو، فإذا زين العابدين فما شككت أنه جاء يرد إليّ الأذى ولكنه قال: يا أخي إن كنت صادقاً فيما قلت لي فغفر الله لي، وإن كنت غير صادق فغفر الله لك، ثم ألقى السلام ومضى.

فلحقت به وقلت له: أقسم لا عدتُ إلى أمرٍ تكرهه.

فرق لي وقال: وأنت في حل مما قلت لي.

حلمه وكرمه

روى أن أحد أبناء المدينة قال: كان زين العابدين خارجاً من المسجد فتبعته وجعلت أشتمه لا أعرف سبباً، فتهجم عليّ الناس يريدون ضربني ولو أخذوني لم يُفْلِتُونِي حتّى أحطم، فالتفت إلى الناس وقال: كفوا عن الرجل، فكفوا عني، ولما رأى ما أصابني من الخوف أقبل عليّ بوجهه الطلق وجعل يؤمّنني ويُهْدِيءُ من روعي ثم قال لي: لقد سببتنا بما علمت، وما سترَ عنك من أمرنا أكبر.

ثم قال لي: ألك حاجة نعينك عليها؟

فاستحييت منه ولم أقل شيئاً، فلما رأى حيائي ألقَ عليّ كساءً كان عليه وأمر لي بألف درهم، فجعلت أقول كلما رأيته - بعد ذلك -: أشهد أنك من أبناء رسول الله ﷺ.

رحمته وسعة صدره

روى أحد مواليه وقال: كنتُ غلاماً لعلي بن الحسين فأرسلني في حاجة فأبطأت عليه، فلما جئته ضربني بالسوط فبكيت واشتد غيظي منه لأنه ما خفق أحداً قلبي قط، وقلت له: الله الله اتقِ الله يا علي بن الحسين، أتستخدمني في حاجة فأقضيها لك ثم تضربني؟

فبكى وقال: اذهب إلى المسجد وصل ركعتين، ثم قل: اللهم اغفر لعلي بن الحسين، فإذا ذهبت وفعلت فأنت حر لوجه الله تعالى، فذهبت وصليتُ ودعوتُ، ولم أعد إلى داره إلا وأنا حر.

إنفاقه على الفقراء

لكن زين العابدين لم تبطره النعمة وإنما جعل مال الدنيا مطيةً للفوز في الآخرة وكان أكثر ما حُبب إليه من أعمال البر صدقة السر.

فكان إذا جن الليل يحمل أكياس الدقيق على ظهره الضعيف ويخرج بها في عتمات الليل والناس نيام، وكان يطوف بها أحياء المدينة ليتصدق على ذوي الحاجات، من لا يسألون الناس إلحافاً - أي لا يسألون الناس شيئاً - يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف. فكانت جماعات كثيرة من أهل المدينة تعيش ولا تدري من أين يأتيها رزقها رغداً، فلما مات علي بن الحسين، فقد هؤلاء ما كان يأتيهم من رزق، فعرفوا مصدره، ولما وضع زين العابدين على المغتسل نظر غاسلوه فوجدوا في صدره آثاراً سوداء فقالوا: ما هذا؟

فقال لهم: إنه من آثار حمل أكياس الدقيق إلى مائة بيت في المدينة،

فقدت من ينفق عليها بموته ولكن الله هو المعين^(١).

ما يرشد إليه الحديث تربوياً ودعواً:

- ١ - حسن الخلق هي صفات الأنبياء وأول باب للوصول لرضا الله ﷻ.
- ٢ - ليس حسن الخلق أن نصبر على أذى الناس ونحمل كلام الناس، بل حسن الخلق أن نقدم المعروف ونسامح ونعفو عمّن تكلم علينا وطعن فينا.
- ٣ - والله ﷻ مدحه نبيه الكريم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم، الآية: ٤] ونحن من باب أولى أن نتخلق بصفاته لأننا من أتباعه.
- ألا ترى أن النبي ﷺ أطلق سراح ابنة حاتم عندما نادى بصوت ملهوف: يا رسول الله، هلك الوالدُ وغاب الوافد فامنن عليّ من الله عليك.
- فقال: «ومن وافدك» - أي الذي متكفل بأمرك -
- قالت: أخي عدي بن حاتم.
- فقال: «الفار^(٢) من الله ﷻ. ولكن أطلقوا سراحها إن أباه كان يحب مكارم الأخلاق»، فلما علم عدي بن حاتم ما فعل رسول الله ﷺ بأخته وكيف أحسن معاملتها أسلم وحسن إسلامه.

(١) صور من حياة التابعين.

(٢) الفار: الهارب من رسول الله ﷺ ولم يسلم بعد.